التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب: "قراءة في مجلة أمل التاريخية من خلال الاعداد 28-29-30"

الأستاذ: محمد الراشيدي

تقديم:

ستأتي مشاركتي المتواضعة من خلال مقال سيسلط الضوء على التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب عن طريق قراءة في مجلة أمل التاريخية من خلال الاعداد 28-29-30. هذه القراءة ليست مادة علمية مستهلكة بقدر ماهي اعادة الاعتبار لموضوع حي من جهة ، ومن جهة أخرى اعادة النبش في معطيات مجلة تاريخية ذات قيمة علمية كبيرة ، ولاختيارنا البحث في هذا المحور عديد المبررات من قبيل ما تعيشه بلادنا وواقع التعليم بها ،بهدف وضع مقارنة بين الماضي والحاضر وهذا لا يتأتى لجميع التخصصات لكنه ليس بالعسير على تخصص كالتاريخ يمكننا من معرفة الماضي لفهم الحاضر واستكشاف المستقبل ، طبعا هذه هي غايتنا القصوى من وراء البحث في موضوع التعليم عبر تاريخ المغرب من خلال مقاربة زمنية تمكن من مقارنة الامس باليوم لوضع اليد على الاختلالات ومحاولة طرح حلول لتجاوز الأزمة الحالية وهذه مهمة الكتابة التاريخية الحالية التي تجعل من الزمن التاريخي زمنا واحدا غير منفصل وتجعل من البحث التاريخي بحث متحرك غير تابث قادر على اعطاء الحلول للأزمات .

بقية المبررات التي قادتنا الى هذا الاختيار تكمن في أن العلم والبرامج التعليمية، هي طريق التقدم، اذ أصبحت درجة التعليم مند بداية التاريخ المعاصر هي التي تحدد مكانة دولة أو أمة، ومند النصف الثاني من القرن 19م وبعض عناصر النخبة المغربية تدعو الى اصلاح التعليم وعصرنته، وربطه بالواقع والمستقبل.

وستسلط هذه المساهمة الضوء على المسألة التعليمية في فترات متفرقة من تاريخ المغرب هذا من الناحية الزمنية، أما مجاليا فسنزاوج بين البوادي والمدن لمعرفة الواقع التعليمي بهما في محاولة لرسم معالم واضحة عن التعليم بالمغرب عبر التاريخ. هذه الدراسة أيضا ستجعل من الأعداد 28-29-30 من مجلة أمل قاعدة ومنطلق، وستعيد النبش في المقالات التي جاء بها كل عدد لضخ دماء جديدة في محور البحث حول التعليم وبعث هذه القضية من جديد لأنها قضية حاسمة في تاريخ البلدان،

وذلك عبر قراءة رصينة، جادة ومسؤولة ملتزمة بقواعد البحث التاريخي والعلمي بعيدة عن الاجترار والمستهلك، ساعية الى تقديم اضافة نوعية من شأنها تدعيم الاصلاح التعليمي الذي تنخرط فيه بلادنا بشكل واضح.

التعريف ب "مجلة أمل"

–هي مجلة مغربية علمية تعني بالتاريخ والثقافة والمجتمع.

–تصدر ثلاث مرات في السنة.

–عنوانها: ص. ب 14910، البريد المركزي الدار البيضاء. المملكة المغربية

–هاتفها الثابت: 022506146

–عنوانها الالكتروني: maarouf-dafali@yahoo.fr

–الايداع القانوني: 48 – 92

–مديرها ورئيس تحريرها: محمد معروف الدفالي.

–هيئتها التحريرية: محمد الفلاح العلوي – المختار عنقا الادريسي – بوشعيب اهلال – عبد العزيز باقية – نوال متزكي – محمد المؤيد.

–السحب والتوزيع : مطبعة النجاح الجديدة –سابريس

–الافكار الواردة في المواضيع تعبر عن آراء اصحابها والمقالات المرسلة الى المجلة لا ترد الى اصحابها سواء نشرت او تنشر.

تعد هذه المجلة من بين أهم المجلات الصادرة في المغرب، تعالج مواضيعها اجناس معرفية متنوعة تمس خاصة الجانب التاريخي والاجتماعي والثقافي...

تتضمن المجلة وثائق غميسة وتلامس ملفات معينة وهي مفتوحة لكل الباحثين، وتصدر في بعض الاحيان بأعداد مزدوجة.

أصدرت المجلة منشورات مهمة منها:

"*جامع القرويين والفكر السلفي" لمحمد الفلاح العلوي.

"*موجز تاريخ سلا " لكينيث براون ترجمة محمد حبيدة واناس لعلو

" *التاريخ القديم لافريقيا الشمالية " لالبير عياش ترجمة عبد العزيز بل الفايدة.

"*الانوثة في خطاب ابن عربي" لنزهة برادة...

صدر العدد الاول من "مجلة أمل: سنة 1992 وكان من ابرز المواضيع التي تضمنه:

*اي منهاج لكتابة التاريخ؟

*جوانب من المسألة البربرية.

*مدرسة الحوليات.

*وثائق حول السياسة البربرية بمغرب الحماية.

وتقديمنا لهذا العمل سيتم عبر التحليل شكلا ومضمونا، فمن الناحية الشكلية تم تناول موضوع التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب من خلال اصدارين لمجلة أمل عن طريق نشر مقالات ضمن الاصدار الذي ضم العددين 28- 29 في مؤلف واحد حمل بين طياته 17مقال كانت خمسة منها تعنى بالموضوع قيد الدراسة –التعليم- بشكل جد مباشر، ثم اصدار العدد 30 سنة 2004 والذي تضمن 15 مقال، ستة منها لامست المسألة التعليمية بشكل مباشر هي الأخرى.

أما من حيث المضمون فسنتطرق للموضوع اعتمادا على المنهج التالي:

قراءة في العددين: 28-29.

تميز هذا الاصدار بدمج عددين 28و29 في اصدار واحد من 328 صفحة ، وسبعة عشر مقالا حول التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب ، حيث تمكنت المساهمات من تسليط الضوء على جميع الحقب التاريخية بداية مع الفترة القديمة من خلال عمل الأستاذ عبد العزيز بلفايدة حول الابداع الروماني في مجال التعليم والتربية ،ثم الدور التاريخي للمدرسة في التعليم بالمغرب الوسيط للأستاذ الحسين أسكان الى جانب مقال الأستاذ أحمد البوزيدي حول الدراسة والتدريس بمدرسة تامكروت ، وكلاهما يغطيان الفترة الوسيطة من تاريخ المغرب ، ثم نجد الباحث محمد اليازيدي تعرض للتنظير الذي حظي به التعليم الاستعماري في المغرب وهو عمل ينتمي للفترة الحديثة ، هكذا اذن نجد أن المقاربة التاريخية المعتمدة في تصنيف هذه الأعمال لها دلالة كبيرة على احترام السياق التاريخي ومراعاة كرونولوجية الأحداث التي ارتبطت بالمسألة التعليمية داخل مجال جغرافي غير ثابت عبر الزمن التاريخي وهو بلاد المغرب . وهي مقاربة قيمة ومهمة تمكن الباحث من تتبع مسار تطور التعليم بالبلاد وتحديد سياقاته والمتغيرات المتحكمة في تطوره.

واحتراما للمنهجية المتبعة في التسلسل الزمني للأحداث سنستهل قراءتنا المتواضعة هذه مع الفترة القديمة ثم الوسيطة فالحديثة للوقوف على مسار تطور القضية التعليمية بالمغرب وذلك عبر الطريقة التالية:

- **الابداع الروماني في مجال التعليم والتربية وهو عمل قام بترجمته الأستاذ عبد العزيز بلفايدة –أستاذ باحث بكلية الآداب /القنيطرة–لصاحبه Henri Irenée Marrou** والذي تطرق فيه الى الأهمية التاريخية للتربية الرومانية وانتشار هذا النوع من التعليم ، وذلك من خلال ابراز سياسة الرومنة وحدودها ، دون اغفال للخريطة التعليمية والمدارس الرومانية سواء الابتدائية والاعدادية ومدارس النحو ، وتجدر الاشارة هنا أن التعليم المتقدم لم يكن بامكان جل الأطفال الوصول اليه لأن المجتمع الروماني ظل مجتمعا أرستقراطيا وأن الدراسات المعمقة ظلت حكرا على النخبة ، وهي نفس الملاحظة التي سنجدها في الفترات التاريخية اللاحقة خصوصا زمن الحماية الفرنسية ونخبوية التعليم لتعميق الفوارق بدلا من تبديدها ،هذا وذهب الكاتب الى التعليم العالي والمتعلق زمنها بفن الخطابة وتعليم القضاء ، معتمدا في ذلك على مادة مصدرية متنوعة وغنية مكنت الباحث في الفترة القديمة من جمع معلومات قيمة حول مسألة تبدو عويصة البحث .وبالانتقال الى العصر الوسيط المغربي والذي شهد تطورا مهما مع الامبراطوريتين المرابطية والموحدية وتقدما علميا مع المرينين نسجل أن المجلة حملت مقالين من الأهمية بما كان ، اهتما بتسليط الضوء على المدرسة كمؤسسة جديدة انضافت للمؤسسات التعليمية بالمغرب في القرن السابع الهجري ولعبت دورا مهما في تطور المسار التعليمي بالمغرب الوسيط وما بعده، اذ غيرت كثيرا من التقاليد التعليمية الاسلامية التي كانت سائدة قبل ظهورها في القرن السابع الهجري ، وأرست تقاليد جديدة مؤثرة بصفة خاصة في طرق تمويله وأهدافه ومضامينه .
- **الدور التاريخي للمدرسة في التعليم بالمغرب الوسيط للأستاذ الحسين أسكان–أستاذ باحث بكلية بنمسيك–** تضمن هذا المقال عشرون صفحة تمكن من خلالها الأستاذ من ابراز دور المدرسة كمنشأة تعليمية في التعليم بالمغرب الوسيط من خلال اعطاء تعريف لها كبناية مستقلة عن أية بناية عمومية أخرى كالمسجد مثلا ومعتمدة على الأحباس في القيام بوظيفتها وباعتبارها أيضا مؤسسة حضرية تعليمية وسنية ، ثم تحديد تاريخ ظهورها بالمغرب الأقصى والغرب الاسلامي ، مع التعريف بالظرفية التاريخية العامة لظهورها ، وتحديد الملابسات العامة لانتشارها الجغرافي في ربوع البلاد بعد ذلك ، دون اغفال الوقوف عند تأثيرها في المسار التعليمي خلال القرن السابع الهجري وما بعده ، مع التركيز على دورها التاريخي والذي استمدته من هدف تشييدها حيث أن الهدف الأساسي وراء بناء المدارس والذي تلح عليه النصوص التاريخية ، هو احياء العلم وتوفير الظروف المعيشية المواتية لطلاب العلم والمدرسين ليتفرغوا لتحصيل العلم وهذا ما نجده في أغلب وقفيات التحبيس على المدارس [1].

هذا ويخلص الكاتب في نهاية مقاله الى أنه اذا كانت المدارس قد أحيت العلم عند ظهورها ووسعت من شرائح المتعلمين لتشمل الى جانب الحكام قسطا من الرعية، فانها أفرزت سلوكيات ساهمت بشكل كبير الى جانب عوامل أخرى في انحطاط وتدني مستوى العلم والتعليم بالمغرب عند نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث.

- ✓ **الدراسة والتدريس بمدرسة تامكروت على عهد الشيخ محمد بن ناصر لأحمد البوزيدي – أستاذ باحث بكلية الآداب/ فاس–** والذي تطرق للمجال الذي انبثقت فيه هذه المدرسة وهو واحة فزواطة والتي شهدت بروز عدة مدارس كان لها دور مهم في تاريخ المنطقة ، اكنها تراجعت خلال القرن 17م وخف نشاطها بسبب الاضطرابات السياسية التي عاشتها المنطقة الا أنها ستنبعث من جديد مع الشيخ محمد بن ناصر الذي استرسل الكاتب في التعريف به وتأسيسه لمدرسة تامكروت، مع رصد بعض الحيثيات المتعلقة بأوقات الدراسة وطرق التدريس الى خلوصه بأن الدراسة في عهد محمد بن ناصر بزاوية تامكروت الانصارية ، جعلت من مدرسة هذه الزاوية أشهر مدرسة بالجنوب المغربي على الاطلاق خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري ، وذلك بفضل الجهود الحثيثة التي كان يبذل الفقيه محمد بن ناصر وطرق تدريسه التي تعتبر أكثر تطورا بالمقارنة مع غيرها من المدارس في ذلك الابان .

وعن أهمية المدرسة قيد الدراسة يقول أنه لولا الشيخ محمد بن ناصر في درعة ومحمد بن ابي كر في الدلاء وعبد القادر الفاسي، لانقطع العلم في مغرب القرن الحادي عشر الهجري[2] .

بعد أخذ صورة عن تعليم المغرب القديم من خلال مقال الابداع الروماني في مجال التربية والتعليم ، ورصد الدور التاريخي للمدرسة في التعليم بالمغرب الوسيط وكذلك تسليط الضوء على التعليم في الفترة الحديثة خلال القرن 17م من خلال مقال الدراسة والتدريس بمدرسة تمكروت نكون قد سلطنا الضوء على جوانب معتمة من تاريخ التعليم في المغرب ، وكذلك تمكنا من جمع شتات معلومات متناثرة هنا وهناك من شأنها أن تمدنا بتصور واضح عن المسألة التعليمية في ثلاث حقب مختلفة من تاريخ بلادنا وتجعلنا قادرين على سبر أغوار تطور القضية قيد الدراسة في مرحلة حاسمة من تاريخنا الراهن وهي فترة الحماية ، كذلك من شأنها أن تجعلنا قادرين على وضع مقارنة لتعليم المغرب قبل وبعد الحماية الفرنسية ، وسنستهل الحديث عن هذه المرحلة بالمقال التالي :

- ✓ **التنظير للتعليم الاستعماري بالمغرب، لمحمد اليزيدي –باحث من الرباط–** تطرق لموضوع التعليم باعتباره مجالا خصبا للعديد من الأطروحات الاستعمارية التي أكدت على أهمية هذا العنصر في ضمان الوجود الفرنسي واستمراره بالمغرب، وليس بهدف تحقيق ومناقشة هذه الأطروحات ولكن رغبة في الامساك بالمنطلقات التي حددت استراتيجية

الحماية الفرنسية في مجال التعليم، وذلك من خلال تركيزه على ثلاث شخصيات محورية كان لها الأثر الكبير في تشكيل وهيكلة البناء التعليمي بالمغرب على عهد الحماية: وهم ليوطي، جورج هاردي، بول مارتي.

1 **ليوطي والشبيبة المغربية**: تم التعريف هنا بهذه الشخصية البارزة وعلاقتها بالشبيبة التي كان يعول عليها لربط علاقات الصداقة بين البلدين ،والذي سيتجه نظره الى انشاء تعليم خاص بأبناء الأعيان ومدارس ثانوية ، أشرف هو على وضع برامجها واختيار تلاميذها ، والذي سيشكل لجنة سنة 1916 لدراسة ومناقشة الأسس التنظيمية للتعليم الثانوي الاسلامي ، لكن اختياره دوما كان ينصب على النموذج الأنكلوصاكسوني القاضي بعدم جعل المدرسة آلية للتغيير الاجتماعي، وبالتالي فهو يستعيد مثل آخرين في هذه الفترة بقايا الرومنة، ويسطر بصورة صريحة لما يوازي الانجاز الروماني ، وبالتالي بقيت وعوده مجرد خطاب ميت وظل مخلصا للنهج الاستعماري التقليدي .

2 **جورج هاردي**: **الهاجس السياسي والايديولوجي للمدرسة الاستعمارية** ويعتبر من أكبر منظري التعليم الاستعماري، تم تعيينه على رأس ادارة التعليم سنة 1920، الذي اعتبر التعليم ركيزة أساسية وسلاحا مكملا ضمن آليات اختراق البلدان المستعمرة، والذي لم يكن يرى في مبدأ الفصل بين المغاربة في التعليم وليد تمييز عرقي بل كان الهدف منه "خلق روح التعاون عن طريق توحيد الأفكار، فالحكمة تقتضي عدم المساس بالتقاليد وعدم جعل المدرسة أداة للفوضى "[3]

لكن أهم ما ميز فترته على رأس الشأن التعليمي بالمغرب هو تدشين سياسة التفريق بين العرب والبربر في مجال التعليم، وهو ما يبدو جليا مع زعيم التنظير للسياسة البربرية "بول مارتي" .

3 **بول مارتي**: **توظيف المؤسسة التعليمية في مجال السياسة البربرية**، حيث شكل التعليم مجالا خصبا لتطبيق هذه السياسة والتي استهدف الاستعمار من خلالها القضاء على الوحدة الفكرية والشعورية وفرض وجوده الثقافي والسياسي والفكري، هذه المدرسة الفرنسية –البربرية يعرفها مارتي كونها مؤسسة فرنسية بالتعليم والحياة، وبربرية بالزبناء والوسط، فرنسية بمعلمها وبربرية بتلاميذها وبالتالي لا وجود للأجنبي، فكل تعليم بالعربية وكل تدخل للفقيه وأي نشاط اسلامي يجب ابعاده [4].

وبالتالي كانت السياسة البربرية خطئا سياسيا في غاياتها وأهدافها أفضت الى نتائج عكسية لما كان يتوقع منها، ووحدت ما سعت فرنسا الى تفرقته، كما أبانت عن جهل أقطاب السيسيولوجيا الاستعمارية بحقيقة الوضع بالمغرب.

- ✓ **اتجاهات التعليم العمومي بالمغرب في العشر سنوات الأولى من الحماية، مقال لجورج هاردي قامت بترجمته أمينة بريدعة – باحثة من الرباط–** اذ مع مستهل المقال نجد الصفحات الأولى منه حبلى بالإشكالات من قبيل تعقد المهمة الجديدة للفرنسيين مقارنة مع التعليم التقليدي ؟

تعليم الفتيات المسلمات؟ التعليم لعالي الاسلامي –الفرنسي؟ الاتجاهات المتعددة وأبرزها العلمية؟ كلها مشاكل للتعليم بالمغرب جيء لها بحلول تخدم المنطلقات الاستعمارية وكلها رغبة في اعطاء دفعة قوية توجه عمل الحماية المدرسي، وتكمن قيمة وقوة هذا المقال في كونه معاصرا للحدث اذ صدر في بدايات فرض الحماية على المغرب من طرف جورج هاردي ضمن:

la renaissance du maroc dix ans de protectorat 1912-1922

Résident général de la republique francaise au maroc

Rabat pp 198-207

وقبل الختام وللأمانة التي يفرضها منطق العلم والبحث فان المقال المترجم يعبر بشكل صريح عن مدى شراسة التوجه الامبريالي والاستعماري القاضي بخلق توجه علمي يتماشى والتوجهات العامة لسلطات الحماية غير ابه بالتعليم المحلي للبلد المستعمر.

قراءة في العدد 30:

بعد القراءة المتأنية لمقالات هذا العدد، ارتأيت تصنيفها الى مرحلتين تفصل بينهما معاهدة الحماية 1912 كحدث بارز غير مسار المسألة التعليمية بالمغرب وبالتالي سنتطرق للموضوع من خلال:

1-التعليم بالمغرب قبل الحماية:

تناول هذا العدد المسألة قيد الدراسة من خلال ست مقالات كالتالي:

- ✓ **تعليم الطفل وعلاقته بوضعية الأسرة ، في مغرب القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي .لحماد لطيف وهو أستاذ باحث من مكناس** استطاع من خلال 10 صفحات تقديم منتوج يرجع للفترة الوسيطة عبر بيبليوغرافية متنوعة اهتمت بحالة الطفل الأسرية والاجتماعية ، وأثرها في حياته العلمية ، التي تجمع على ضرورة اكتساب التعليم وضرورة تعليم الأطفال ، الا أن ذلك غالبا ما كان ، ففي الواقع يصطدم الطفل بعديد المعوقات والعراقيل التي تقف حجرة عثرة وتحول بينه وبين دراسته .فبلم شتات المادة العلمية الخاصة بتعليم الطفل في مغرب القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي يتضح مدى تحكم الوضعية المادية للأسرة وبيئتها الاجتماعية في تعليم أبنائها وتوفير الظروف اللازمة والكاملة لذلك .[5] وسيضع الكاتب مقارنة بين أبناء الطبقات الاجتماعية ويخلص الى أن عملية تعليم الطفل في الفترة المدروسة خضعت بشكل كبير للوضعية الاجتماعية للعائلات .وفرضت على غالبيتهم اقتحام مجال الانتاج

والتكسب منذ سن مبكرة ، تمكن أطفال العائلات الموسرة ، بفضل الظروف المالية والاقتصادية المواتية من توجيه كل اهتماماتهم نحو العلم والتعلم ، مثلما كان للآباء داخل هذه الأسر الدور الهام في تكوينهم وتهييئهم لتولي المناصب العليا .[6]

- ✓ **الحياة التعليمية في سبتة الوسيطية (القرنان 7-8/13-14م) لمحمد حقي أستاذ باحث من ورززات** استطاع هو الاخر من خلال مقاله هذا (26 صفحة) تعميق البحث في فترة زمنية مهمة من تاريخ المغرب في مدينة لعبت دور كبير في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية مساهما في دراسة موضوع قلما يتم الاهتمام به ، ومتطلعا الى اعطاء لمحة سريعة عن الحياة اليومية لهذه المدينة وتركيز الاهتمام على مختلف جوانب نظامها التعليمي بالوقوف عند مختلف جوانب عملية التعليم والتعلم ، وذلك من خلال تطرقه لملامح من حياة المدينة عبر رصد وضعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي لأنه الأقرب للإشكالية المدروسة، وهي ظروف ملائمة حسب ما جاء به لازدهار الحياة العلمية والاقبال على العلم وطلبه وبالتالي نشاط حركة التعلم ، بوجود بنيية ثقافية قارة مثل العلماء والمؤسسات التعليمية مثل المدارس والمساجد والجوامع والكتاتيب والزوايا دون اغفال وضعية المدرسين والتي كان يحظى فيها المدرس بمكانة مهمة وخطيرة باعتباره المصدر الوحيد للمعرفة ، ولم يقف عند هذا الحد بل تسلل الى البحث في الوضع المادي والأجرة التي كانوا يتقاضوها وزيهم والمواد التي يدرسونها من تفسير وفقه ،لغة وآداب ،تاريخ وطب ورياضيات ، دون اغفال تسليط الضوء على طرق التدريس من وقت الدروس والذي كان مرتبط بأوقات الصلاة في بدايته وانهائه ، مع العلم أن النظام المعتمد هو نظام الحلقة في اعطاء الدروس وفيه يستند الأستاذ الى جدار أو سارية في المدرسة أو الجامع ، معتمدا على الالقاء والمحاضرة بينما يسود الصمت من جانب الطلاب ، فلا يشاركون في مناقشة أو ابداء رأي اللهم بعض الاستفسارات النادرة. وفي أماكن اقامتهم تأتي المرحلة الصعبة وهي حفظ متن الدرس وشروح الأستاذ لأنها الطريق الوحيد الى الاجازة.[7]

ويخلص الى أن هذا النوع من التعليم يمجد الحفظ ويعتمد التذكر، وأن سبتة عرفت نشاطا تعليميا كبيرا خلال فترة الدراسة بفضل توفر الشروط الموضوعية لذلك من مؤسسات وأساتذة واقبال السكان الا أن نظامها التعليمي عرف عقما وجمودا في طرقه حيث لم يعتمد الابداع واعتماد العقل، كما ظل متمسكا بالعلوم النقيلة المرتبطة بالشرع والآداب، وهي تعكس الوضع الذي عرفته الحياة العلمية في المغرب والأندلس في نهاية القرون الوسطى.

- ✓ **التعليم الأصيل بالبادية المغربية نموذج السراغنة وزمران للحسن شوقي وهو أستاذ باحث من السراغنة** تعرض للموضوع في عشر صفحات بتسليط الأضواء الكاشفة على طرق التعليم وأساليبه بالبادية المغربية وخاصة الثقافة المكتوبة التي كانت تلقى بمساجد الدواوير والكتاتيب المنبثة هنا وهناك ، لعامة الأولاد صغارا وكبارا، ثم تستمر في

المدارس المجاورة أو البعيدة في المدن العلمية الكبرى كمراكش وفاس وزوايا الجنوب والصحراء ...كما تطرق لمراحل التعليم وأماكنه ، ثم ظروف تلقي العلم والقائه واقامة الطلبة والأساتذة وظروف عيشهم، وأساليب معاملتهم في مجتمع قروي مكون أساسا من رعاة وفلاحين ، ضمنهم فقهاء وعلماء مقيمون، أو استقرار بالمدن وكانوا عدولا وقضاة ومدرسين ، كما عرف ببعض المدارس العلمية العتيقة.

ومن خلال قرائتنا للمقال أثار انتباهنا فقرة تتحدث عن كيفية تقاضي الاساتذة والطلبة لأجرهم من خلال "الشرط" وهو عرف قديم متوارث في جميع التراب المغربي ومستمر بشكل قليل الى اليوم في ظل الدور الذي تقوم به المندوبية الاسلامية لتأطير الأئمة والطلبة والشرط هو عقد بين أهل الدوار ولفقيه مقابل أمهم والأذان وتعليم الصغار ، يتناوبون على اطعامه من جهتهم بشكل يومي في اطار "نوبة الطالب" بتقديم الوجبات الثلاث وعند جز الصوف يحظى بنصيب لصنع كسائه، كما يمنحه الطلبة بعض النقود كل يوم أربعاء (الأربعية) تهييئا لتحريرهم من الدراسة يوم الخميس وصباح الجمعة اضافة الى واجب العواشر أي الأعياد الاسلامية حيث يحرر الطلبة من الدراسة سبعة أيام .

والأهم كذلك هو الحظوة التي كانوا يتمتعون بها والتقدير الذي يكنه لهم الأطفال وأوليائهم عكس ما نجد في زمننا الراهن، من تسيب وتطاول على المدرس وفقدانه لهيبته داخل المجتمع.

2- التعليم بالمغرب زمن الحماية:

بعد نموذجين مهمين من التاريخ الوسيط والمسألة التعليمية به، سنشد الرحال عبر المجلة دائما الى القرن العشرين وهو القرن الذي شهد حدثا مهما يتمثل في الحماية الفرنسية على المغرب (1912-1956) وهي مرحلة عرفت تحولات شملت ميادين مختلفة بما فيها التعليم، حيث عملت ادارة الحماية على ادخال اصلاح استهدف المنظومة التعليمية للمغرب عبر إدخال تعليم عصري والحفاظ على التعليم العتيق، حيث نجد:

1الكتاتيب والمدارس الحرة

كان أبناء المغاربة يدرسون بالمسيد والمدرسة العصرية مما يخلق اضطرابا نفسيا وذهنيا للتلميذ بسبب الارهاق الشديد، لدرجة يصبح غير قادر على الاستمرارية والانضباط والتوفيق بين النموذجين معا.

وقد كان المغاربة يمتنعون عن أخذ أبنائهم إلى مدارس إدارة الحماية، كما كانوا يشتكون من الأساليب التقليدية للمسيد فهم يرغبون في تعليم حديث وجيد لكنه مشبع بالروح الدينية. ونتيجة لذلك تم تأسيس المدارس القرآنية الجديدة ابتداء من

سنة 1924 بمراكش. حيث أصبحت الكتاتيب تضطلع بالنشاط السياسي نتيجة عدم خضوعها لمراقبة إدارة الحماية لكون اهتمامها الأول هو القرآن الكريم، وأصبحت مكانا لتجمع رجال الحركة الوطنية ومركزا للدعاية.

2 التعليم الاسلامي

خصصت المدارس الاسلامية لأبناء الأعيان ومنها: المدارس الاسلامية الحضري، المدارس الاسلامية المهنية، المدارس الاسلامية القروية، المدارس الاسلامية للبنات. وقد تجلت مهمة التعليم الاسلامي في تلقين التلاميذ تعليما وتربية تحترم المعتقدات، وتتماشى مع التقاليد والعادات، وقد سيطر على التنظيم المدرسي اهتمامان مزدوجان:

- تمثل الأول: في وضع قواعد صلبة وواسعة لانتقاء النخبة التي ستساهم في التنظيم الداخلي من خلال منحها بعض المناصب الادارية، أما الثاني، يهدف إلى تثبيت التلاميذ بالأوساط التي يعيشون فيها وتوجيههم نحو التعليم المهني، وإلى حدود الحرب العالمية الثانية ظل هدف المدرسة الأوربية المحافظة على هدفها المتمثل في خلق نخبة من المثقفين والمتعلمين لفائدة الاستعمار. وبخصوص التعليم الأوربي حسب عبد الرزاق الكريط في كتابه

مؤسسة الحماية الفرنسية بالمغرب مخاض الأفول (1935-1945)، فقد اهتم بأبناء الجاليات الأوربية، وينقسم إلى مستويين ابتدائي وثانوي.

لم تكن الأعمال الاجتماعية التي سطرتها إدارة الحماية تسعى إلى العناية بالمغاربة، بل تعمل على كسب مزيد من الاستغلال، فالبرامج التعليمية لم يكن لها مخطط استراتيجي يسعى لإدماج التلميذ في محيطه العلمي، أو يخلق أرضية صلبة لهذه التجربة، وإنما جاءت لربط التلميذ واجباره على التعود على المناهج الفرنسية واستهلاك مقرراتها الدراسية وفق منظومة مستندة على التمييز بإقرار أنواع مختلفة من التعليم، كالتعليم الفلاحي والمهني الذي طبق خصيصا لإجبار التلميذ على التعلق بالأرض وخلق قوة عمل يدوية تساهم في الرفع من المنتوج.

وقبل الحديث عن واقع التعليم في المغرب إبَّان فترة الحماية، تجدر الإشارة إلى الدوافع الأساسية للسياسة التعليمية الفَرنسية، والتي يتحدث عنها "هاردي" – مسؤول السياسة التعليمية في المستعمرات الفَرنسية – بشكل واضح وصريح؛ إذ يقول: "إن القوة تبني الإمبراطوريات، ولكنها ليست هي التي تضمن لها الاستمرارَ والدوام، إن الرؤوس تنحني أمام المدافع، في حين تظل القلوب تغذي نارَ الحقد والرغبة في الانتقام، يجب إخضاعُ النفوس بعد أن تم إخضاعُ الأبدان.[8]"...

نحن إذًا أمام نصٍّ صريح واضح لا يحتاج إلى واسعِ نظر لاستنتاج الهدف الأساسي من السياسة التعليمية الاستعمارية في المغرب، إنها حصرًا – وكما يعبر "هاردي" – تهدف إلى إخضاع النفوس للمستعمِر؛ حيث يتم الاستفادة من المخزون البشري للمستعمَرات، لخدمة مصالح فَرنسا، وضمان تبعيَّة الجيل الذي ستتم تنشئته في المدارس الفَرنسية؛ أي إن الحديث عن "تطوير المغرب" وإخراجه من "ظلمة الجهل والتردّي" – كما يحب أن يبشرنا بذلك (وايسرجر) – لم يكن إلا خطابًا ترويجيًّا لذرِّ الرماد في العيون، وليتمَّ ترويض المغاربة دون محاولة استثارتهم أو استعدائهم، ويتضح هذا جليًّا حين معاينة السياسة العملية التي اتَّبعتها فَرنسا، خصوصًا إذا ما تم النظر إليها تبعًا للأهداف المصرَّح بها، وبِناءً على ذلك سيتم اتباع سياسات تعليمية ممنهجة لتحقيق السيطرة وتسريعها، والحد من ممانعتها، أو التقليل منها في أقل الأحوال.

وقد اتَّبعت فرنسا في سبيل تحقيق أهدافِها خطةً تعليمية، اعتمدت في الأساس على التفرِقة والطبقية، فكان التعليمُ في عهد الحماية طبقيًّا بامتياز، لا على صعيد العِرق فقط، بل تجاوز ذلك إلى طبقة دينية وأخرى اجتماعية، فوَفْقَ هاردي فإن فرنسا ملزَمة بالفصل بين تعليم خاص بالنخبة الاجتماعية، وتعليم لعموم الشعب؛ الأول يفتح في وجه أرستقراطية مثقفة في الجملة...، إن التعليم الذي سيقدَّم لبناء هذه النخبة الاجتماعية تعليمٌ طبقي يهدف إلى تكوينها في ميادين الإدارة والتجارة، وهي الميادين التي اختص بها الأعيان المغاربة، أما النوع الثاني، وهو التعليم الشعبي الخاص بالجماهير الفقيرة والجاهلة جهلًا عميقًا، فيتنوع بتنوع الوسط الاقتصادي؛ في المدن يوجَّه التعليم نحو المهَن اليدوية، خاصة مهن البناء، وإلى الحرف الخاصة بالفن الأهلي، أما في البادية، فيُوجَّه التعليم نحو الفلاحة...، وأما المدن الشاطئية، فسيوجَّه نحو الصيد البحري والملاحة[9].

فحسب رؤية "هاردي" فالمغاربة المسلمون ثلاث طبقاتٍ: طبقة الأعيان، وطبقة سكان المدن "الجهال"، ثم القرويون المنعزلون، الأكثر فقرًا وجهلًا!

ويعطي "مارتي" رؤيةً تفصيلية لهذه الطبقات الثلاث والمنتمين إليها، فيقول" :هناك انقسام طبقي واضح في المغرب...؛ ففي أسفل السُّلَّم هناك الجماعات الدنيا، نصف مستعبدة ونصف مسخَّرة...، ثم هناك الشعب: فلاحون، ورعاة...، ثم هناك البرجوازية التجارية والقروية، وأخيرًا هناك في أعلى السُّلَّم "رجال المخزن"...، ورجال الدين[10].

وينبغي أن يكون لكلِّ طبقة تعليمُها الخاص، ومدارسها الخاصة بها، وموادُّها التي تناسب وضعيتَها الاجتماعية، وليس مِن المناسب أبدًا – كما يرى مارتي – أن تختلط هذه الطبقاتُ وجوديًّا وتعليميًّا ببعضها البعض .

و"يستطرد هاردي" لبيان الطريقة التي سيتم الاستفادة بها من المدارس الطبقية المخصصة للمسلمين، ومدى جدوى المواد المقرَّرة لتحقيق ذلك، فيقول: "إن أكثر ما يجب أن نهتمَّ به هو أن نحرِصَ على ألَّا تصنع لنا المدارس الأهلية رجالًا صالحين

لكل شيء، ولا يصلحون لشيء، يجب أن يجد التلميذ بمجرد خروجه من المدرسة عملًا يناسب التكوين الذي تلقَّاه؛ حتى لا يكون من جملة أولئك العارفين المزيفين، أولئك اللامنتمون طبقيًّا، العاجزون عن القيام بعمل مفيد، والذين تنحصر مهمتهم في المطالبة، هؤلاء الذين عمِلوا على جعل التعليم الأهلي يصبح منبعًا للاضطراب الاجتماعي."[11]

ولا بد من تسجيلِ ملاحظة بخصوص كلام (هاردي)، وهي توجُّسه مِن تحوُّل هذه المدارس الأهلية من إنتاج "آلات بشرية" تخدم مصلحة المستعمر وسياساته، إلى خريجين ذوي توجُّهات ثورية، "مهمتهم المطالبة"، فيجب أن يبقي التعليم خاليًا من الجانب القيمي، ومما من شأنه أن يعكر صفو السياسة الاستعمارية، أو يقف حاجزًا أمامها وعائقًا لاستقرارها!

وهذا التوجُّس لم يكن خاصًّا بهاردي فحسب، بل هو عامٌّ عند السلطات الاستعمارية، يقول "مارتي" معبرًا عن نفس التوجه: "وإذًا فيجب ألَّا نهتمَّ بالكم، يجب ألا نصنع في المغرب سنةً بعد أخرى وبشكل مطَّرد – وعلى حساب مصلحة المجتمع المغربي ومصلحة الإمبراطورية الفَرنسية – رجالًا يُنمِّي فيهم التعليم أذواقًا وحاجات وآمالًا لن يقدروا هم على إرضائها بأنفسهم، ولن تقدر الحماية ولا المخزن، ولا المستعمرة، ولا الاقتصاد المغربي على تحقيقها لهم[12].

ومن المهم جدًّا عند" مارتي "أن يكونَ للسياسة التعليمية في المغرب سقفٌ، وأن يكون "تحديث المغاربة" في مجال التعليم مرتبطًا بتحقيق الأهداف الاستعمارية الفَرنسية، ولا يتجاوزها إلى أبعد من ذلك، فليس المطلوب إذًا تخريجُ طبقات متعلمة واعية، بل مجرد تعليم مختلف الطبقات ليسخَّروا لخدمة فرنسا، وعليه؛ فإن أيَّ تطوير للوعي يعدُّ مخاطرة كبيرة في سياسة المستعمِر، فالتطوير المستمر يعني – حسب هاردي – "صناعة رجال ينمي فيه التعليم أذواقًا وحاجات وآمالًا"، لن تقدر ولن تقبل الحماية توفيرها؛ لأن ذلك سيكون ضد مصلحة فرنسا الاقتصادية والسياسة في المغرب.

لقد تم في هذا السياق الاهتمامُ البالغ بتطوير جامعة القرويين، وهو ما يظهر للوهلة الأولى بعيدًا عن النهج الفرنسي المتَّبع إزاء التعليم الأصيل ومبادئه الإسلامية ولُغة تدريسه، خصوصًا إذا ما تم استصحاب تصريح "هاردي" حول الوقوف بصرامة في وجه الفقهاء الذين يقِفون عقبة في ولوج طلبة المدارس "البربرية – الفَرنسية"، لكن ذلك لم يكن خارج السياق العامِّ، ولم يكن استثناءً، بل تم بتناسق شديد مع رؤية سلطات الاستعمار للأهداف التي ينبغي أن يحققها التعليم المغربي، وإبعاد أي عامل مشوش على تحقيقها أو مبطئ لسيرها العادي.

يُوضِّح المستشرق الفَرنسي "بيكي" ذلك مؤكدًا على أن هذا "الإصلاح" لا يتعارض ومصالح فَرنسا في المغرب، بل العكس، يجنِّبها خطرًا أكبر وشرًّا أعظم، فيقول: "لقد احتفظت الحماية، دون تردد، بالتعليم القائم في هذه المساجد، وعمِلتْ على

ترميمه، وعلى إعادة جامعة فاس إلى سابق إشراقها، ومِن المؤكد أنه من مصلحتنا ألا يذهب المغاربة للبحث عن هذا النوع من التعليم في الخارج؛ كالجامع المشهور جامع الأزهر بالقاهرة.[13]"

فأكبر هواجس فرنسا إمكانية احتكاك هؤلاء الطلبة بالحركات التحرُّرية القومية والإسلامية في مصر، أو أن يتم تزويدهم بجرعات ثقافية إنجليزية منتشرة آنذاك في مصر، وإنجلترا هي الغريم التقليدي للثقافة الفَرنسية، والمنافس على المستعمرات!

يضيف "مارتي" شارحًا المصلحة في إعادة ترميم القرويين متسائلًا" :ألا يعودون – الطلبة المغاربة – مزوَّدين بميول إنجليزية أو بروح النهضة الإسلامية والتعصب الوطني؟.[14]"

ويذهب "مارتي" بعيدًا حين يُقرِّر أن مما ينبغي على فرنسا أن تجعل نصب أعينِها ألا تقع فيما وقع فيه الإنجليز، فيتم إرسال بعثات من الطلاب المغاربة – خصوصًا من مدارس الأعيان – إلى فرنسا، وأنه ينبغي توفير الموادِّ المدروسة في المدارس المغربية؛ لأنهم سيتلقَّون في المقاهي وفي الجامعات وفي الشوارع آراء ومبادئ ثورية.

أما فيما يخص المواد العامة ولُغة التدريس، فيقول "هاردي" :"إنها بطبيعة الحال اللُّغة الفَرنسية، التي بواسطتها سنتمكَّن من ربط تلاميذنا – المغاربة – بفرنسا، والتاريخ الذي يجب أن يعطيهم فكرة عن عظمة فرنسا.[15]"

"إن اللُّغة الفَرنسية في اعتبار (هاردي) هي أكثر من لُغة للتدريس – بالمعنى الديداكتيكي البيداغوجي – إنها أيديولوجية تعمل على ربط المغاربة بفرنسا وبتاريخها العظيم / المجيد، ومن هذه الأمجاد والعظمة التي لا تُدرَّس طبعًا الاستعمارُ الألماني لفرنسا، ودخول هتلر إلى قصر الإليزيه، وإلقاء خطابه التاريخي، إن اللغة الفَرنسية هي سلاح المعركة إذًا، ولربح الرهان لا بد من حسن استعمال هذا السلاح، حتى ولو تطلَّب الأمر اقتلاع الشعوب والأمم من امتدادها الحضاري، والرمي بها في مزابل التاريخ؛ إن الغاية تبرر الوسيلة؛ حسب جورج هاردي.[16]"

ويتضح جليًّا مدى حرص "هاردي" وغيرِه من المستشرِقين الاستعمارِيين على ربط أي إجراء دقَّ أو جلَّ بالهدف الأساس، وهو خدمة فَرنسا، والطبيعي أن يتم ذلك على حساب اللغة العربية التي تم حصارها في المدارس العتيقة والتعليم الأصيل المضيَّق عليه أصلًا؛ إذ كان يتم" إغلاق كتاتيب تعليمِ القرآن، ومُحاربة معلِّمي القرآن، والتقليص من حصص تعليم العربية في المدارس الرسمية المزدوجة، وإحداث مدارس فَرنسية خالصةٍ، تابعة للبعثة التعليمية الفَرنسية، وخاضعة لوزارة التعليم الفَرنسية مباشرة، أو مدارس كاثوليكية تحت مُسمَّيات واضحة أو مُتستِّرة، ومدارس أخرى فَرنسية بربرية، كما عَمِلَتْ على إحداث معهد عالٍ لتعليم الدارجة المغربية؛ لتخريج الأطر والمساعدين القادرين على مخاطبة المواطنين بالدارجة عِوَضَ الفصحى.[17]"

أي إن السياسة اللُّغوية المعتمدة ذات شقَّينِ أساسين:

أولهما: القضاء على اللُّغة العربية الفصحى، ثم إحلال اللغة الفَرنسية محلها، غير أنه لا بد لنا من تسجيل ملاحظة مهمة حول هذا التغير اللُّغوي الذي كانت تسعى فرنسا إليه في تعاطيها مع النظام التعليمي المغربي، وهو مركزية اللُّغة الدارجة – التي سُمِّيت حينها بالمغربية – في هذا المشروع الاستعماري، ذلك أن المحتل الفَرنسي سعى جاهدًا إلى أن تتبوأ اللغة الدارجة مكانةً استعمالية كبرى، كما ورد فيما ذكره الباحث سلمان بونعمان من إنشاء فرنسا معهدًا عاليًا لتعليم الدارجة المغربية؛ لتخريج الأطر والمساعدين القادرين على مخاطبة المواطنين بالدارجة، عِوَضًا عن الفصحى.

"فإن سياسة فرنسا تُجاهَ اللغة العربية الفصحى كانت واضحةً لا لبس فيها، وهي محاربةُ هذه اللغة بكل وسيلة ممكنة، وقطعُ الصلة بكل ما يؤدي إلى نشرها وتعلُّمها؛ لأن الهدف المرسوم هو تطويرُ المغاربة – والبربر منهم بصفة خاصة – خارجَ إطار هذه اللغة والانتماء للحضارة العربية الإسلامية".

وما سُمِّي آنذاك بالتعليم الإسلامي لم يحمل مِن هذا الوصف غير الاسم، وقبل سنة 1944"لم يكن هناك أي اهتمام باللغة العربية والمواد الإسلامية، فلقد كانت اللغة العربية والثقافة الإسلامية ممنوعةً أو شبه ممنوعة، إلا ما كان مِن بعض الدروس الدينية في مدارس الأعيان، أما بعد سنة 1944م، فقد تم تخصيص 10 ساعات للغة العربية والمواد الدينية، مقابل 20 ساعة للفَرنسية والمواد المدروسة، وفي الابتدائي ظلَّت حصص العربية هزيلةً مملة، غير خاضعة لأي توجيه أو مراقبة، فقد كانت طرق التلقين تقليدية، وكان الأساتذة ضعفاء من جهة التكوين البيداغوجي، وفي الثانويات اعتُبِرت اللغة العربية لُغة ثانية، أما في "الليسيات"، التي كانت مدار نخبة بعد أن تم السماح بعد سنة 1944 م للمغاربة بولوجها، فقد كانت العربية مادةً مهملة، مادتها قصص خرافية وحكايات تشوه المغرب وتاريخه.

ومن جهة أخرى تم تقسيم سكان المغرب – بالنظر إلى الدين الذين ينتمون إليه – باعتبارهم ثلاثة كيانات غير متجانسة: المسلمون، واليهود، والأوربيون، وتم تخصيص نمط تعليم لكل طائفة من هذه الطوائف، وقد سبق الحديث عن التعليم المخصص للمغاربة المسلمين.

أما فيما يخص المدارس اليهودية، فإن أول ظهورها في المغرب كان قبل فرض الحماية، ليتم إنشاء حوالي 20 مدرسة يهودية بتمويل من الرابطة الإسرائيلية العالَمية، ومنظمات يهودية أخرى في الفترة ما بين 1862م إلى 1911م، ولم يحتَجِ المستعمرُ إلى إدخال كثير من التغييرات على هذه المدارس، فقد فرضت اللجنة المركزية للرابطة الإسرائيلية العالَمية مقرَّرًا عامًّا في كل مدارسها، يعتمد على تعلُّم اللغات الأجنبية والتحدُّث بها بطلاقة، واعتماد اللُّغة الفَرنسية لغة تعليم، مع اعتماد اللغات

الإنجليزية والإسبانية والإيطالية، والحساب والمواد التالية: الهندسة، والفيزياء، والكيمياء، بالإضافة إلى العِبْرية والتاريخ اليهودي، والتاريخ العام، والجغرافية[18].

ومما يثير الانتباهَ كون اليهود اعتمدوا مبكرًا في مدارسهم اللغة الفَرنسية لغةً أساسية، رغم أنهم في الأصل مواطنون مغاربة، ترجع جذور قسم منهم إلى وجود الفينيقيين في المغرب، وقسم آخر إلى ما بعد سقوط الأندلس؛ حيث هاجروا هم والمسلمون بعد الاضطهاد النصراني لهم، ولعل ذلك يرجع إلى كون اليهود ينظرون إلى أنفسهم كطائفة لا انتماء لها لهذا الوطن، ولا رابطة بينها وبين المغاربة المسلمين، فكانت هذه المدارس بعد الاستعمار نسخةً طبق الأصل من التعليم الأوربي، الذي كان بدوره يساير برامج التعليم الفَرنسية خطوة خطوة.

اما فيما يخص الأمازيغ يرى "ليوطي" أنه لا يمكن فرض اللغة الفَرنسية عليهم إلا بالقضاء على العربية وسلخهم من الإسلام؛ ليسهل بعد ذلك الانتقال من الأمازيغية للفَرنسية حسب تعبيره؛ فإنه يدرك شدة ارتباط الأمازيغ بالبُعْد الديني المتمثِّل في الإسلام، ومِن ثم التمسُّك بالبعد اللُّغوي المتمثل في العربية، فالحرب على العربية يتم باعتبارها أولًا عامل تجميع مجتمعي وربط أساسي للأمة بدينها، وثانيًا باعتبارها مانعًا يحول دون تبوُّء الفَرنسية المكانة العليا.

وفي هذا الإطار تم إنشاء ما عُرِف بالمدارس البربرية – الفَرنسية، فبدأت سلطات الحماية مشروعًا لبناء هذه المدارس سنة 1923 م، فأنشأت عدَّة مدارس في أكتوبر من السنة نفسها، في مناطق جبال الأطلس، خاصة إيموزار، وعين الشكاك بناحية فاس وأزرو، وعين اللوح بناحية مكناس وخنيفرة والقباب، بالإضافة إلى مدرسة هرمومو بناحية تازة[19].

ويشرح "مارتي" هُوِيَّة هذا النوع من التعليم وأهدافه قائلًا: "لقد حصل الاتِّفاق بين إدارة التعليم العمومي وإدارة الشؤون الأهلية، وتحدَّدت بذلك مبادئ سياستِنا التعليمية البربرية، بكامل الدقة، إن الأمر يتعلَّق هنا بمدارس فَرنسية – بربرية، مدارس تضم صغار البربر، يتلقَّون فيها تعليمًا فَرنسيًّا محضًا، ويسيطر عليها اتجاه مهني، فلاحي بالخصوص، إن البرنامج الدراسي يشتمل على دراسة تطبيقية للغة الفَرنسية، لغة الحديث والكلام، بالإضافة إلى مبادئ الكتابة والحساب البسيط، ونُتَف من دروس الجغرافية والتاريخ، وقواعد النظافة، ودروس الأشياء...، إن أي شكل من أشكال تعليم العربية، إن أي تدخل من جانب الفقيه، إن أي مظهر من المظاهر الإسلامية – لن يجد مكانَه في هذه المدارس؛ بل سيُقصى بكل صرامة .

ويمكن تلخيص أهم معالم هذه المدارس فيما يلي:

- التعليم سيكون فَرنسيًّا محضًا.
- مجالات التدريس الأساسية هي المهن والفلاحة.

- اللغة التي ستدرس بها المقررات هي الفَرنسية فقط.
- اللغة العربية والحس الإسلامي مغيَّب بالكلية، بل ستواجه كلُّ محاولة للتدخل بصرامة.

ولم يتم حصر نظام التعليم هذا في المدارس الابتدائية فقط، بل تم تعميمه على المرحلة الثانوية والدراسات العليا أيضًا، فتم إنشاء ثانويات بربرية – فرنسية؛ كثانوية أزرو التي تم إنشاؤها سنة 1927 م، والمدرسة العليا الفَرنسية البربرية سنة 1914م.

غير أن نظام التعليم في عهد الحماية عامة، والمدارس البربرية – الفرنسية خاصة، عرف فشلًا ذريعًا وانهيارًا مدويًا؛ فمن مجموع المدارس البربرية – الفَرنسية، ظلت ثانوية أزرو الوحيدة المحافظة على طابعها غير العربي، وإلى حدود 1948 م فقط.

هذا السقوط والفشل بقدر ما كان مفرحًا ونصرًا للحركة الوطنية، بقدر ما خلف آثارًا كارثية على ساكنة الجبال، الذين حُرموا من التعليم نهائيًا، خصوصًا أن السلطات الاستعمارية قد قامت بتصفية الكتاتيب القرآنية في سياق السياسية البربرية، وقد كانَتِ الملاذَ التعليمي الوحيد في هذه المناطق، ولم يكن الحال في البوادي المغربية بأحسن حالًا؛ إذ كانت هي الأخرى محرومةً من التعليم الحديث.

وإذا علِمنا أن نسبة سكان البوادي والأرياف بلغت 90 في المائة، يتضح لنا حجم الكارثة التعليمية التي تسبَّبت بها سلطات الحماية؛ أي إن نسبة غير المتمدرسين، أو الذين تلقوا تعليمًا ضحلًا، تتجاوز 90 في المائة من مجموع الساكنة، باعتبار أن كثيرًا من البالغين سنَّ التمدرس لم يلتحقوا بالمدارس.

وقد عرَفت الفترةُ من 1944 م فما بعد حراكًا وطنيًّا نشيطًا، وتحولت الحركة الوطنية من مجرد المطالبة بالإصلاح إلى الحديث عن الاستقلال، وقد كان لهذا الأمر أثرُه على التعليم؛ حيث عرَفت هذه الحقبة ظهورَ المدارس الخاصة العربية الوطنية، والتي كانت نوعًا من أنواع الممانعة ضد التعليم الذي وضعه المستعمر ومنافسة له، ولا بد من الإشارة أن التعليم في المدن أيضًا كان هزيلًا ضعيفًا، فلم تتجاوز نسبة المتمدرسين من البالغين سنَّ التمدرس في سنة 1945 م 2.7 في المائة، وإنما وُصف بالأفضلية من جهة مقارنته بالتعليم في الأرياف والبوادي.

والإشارة إلى غياب التعليم في البادية، يجب ألَّا يُفهم منه أن جماهير المدن كانت أحسن حظًّا في هذا الميدان، لقد بقي التعليم الفَرنسي في المغرب تعليمَ نخبة، ضيِّق الانتشار، قليل المردود.

التغيير الثاني الذي عرَفته هذه الحقبة هو سماحُ السلطات الفَرنسية بالولوج للمدارس الأوربية؛ حيث تم تخفيف شروط الولوج للطلبة المغاربة، ليتهافت الأعيان، وأبناء الطبقة البرجوازية والأرستقراطية على هذه المدارس؛ لأنها الوحيدة – إلى جانب

اليهودية – التي كانت تقدِّم تعليمًا عصريًّا يضمن للمتخرجين فيه مستوى لائقًا، يمكِّنهم من متابعة دراستهم العالية، ليبلغ عدد التلاميذ المغاربة في هذه المدارس في السلك الثانوي 1560، و4600 في السلك الابتدائي سنة 1955، في حين لم تضم المدارس الثانوية المخصصة لأبناء المغاربة إلا 4233 بعد أن تحوَّلت المدارس الإسلامية لمدارس تلجُها الطبقة المتوسطة والفقيرة بعد هجرة أبناء الأعيان إلى المدارس الأوربية.

وقد عرَفت هذه الفترة تحولًا مهمًّا، وهو السماح بإنشاء المدارس الوطنية الخاصة، والتي كانت تُقدِّم محتوًى وطنيًّا يولِي القيم الإسلامية والوطنية والعربية أهميةً كبرى، وقد استقطبت جموعًا واسعة من أبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة، وصارت هذه المدارس تتطور باستمرار وباطِّراد رغم التضييقات التي كانت تطول أطرها من معلمين ومديرين.

ولئن كانت فرنسا قد وجدَتْ في فترة الحماية نظامًا تعليميًّا تقليديًّا ضعيفًا، كان من الممكن أن يتطوَّر ويتقدم لو هيِّئت له الإمكانات والظروف المناسبة، فإنها غداةَ الاستقلال تركت نظامًا تربويًّا هزيلًا متهالكًا، ظلت الطبقيةُ سمتَه البارزة، وأصبح لدينا ثلاثة أنواع من التعليم:

الأول: تعليم عمومي يلجه أبناء الطبقة الدنيا، ضعيف المحتوى والطرائق، يعاني مشاكل بِنْيَوية خطيرة، وظل رغم ضعفه متمسكًا بالطابع الفرنكوفوني.

الثاني: تعليم خاص كان من المفروض أن يكون نواةً لتعليم مغربي وطني مستقلٍّ، غير أنه سقط تحت الضغوط التِّجارية في محاولة مضاهاة التعليم الأوربي، فلم يحتَفِظ بطابعه الوطني المغربي، ولم يكتسب القيمة العلمية التي كان يرجوها، فظل مترنحًا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، على أن الجرعة الفرنكوفونية كانت أشد تركيزًا في هذا التعليم من مثيله العام.

الثالث: تعليم أوربي حديث، تتوفر فيها الشروط البيداغوجية والديداكتيكية، لاكتساب القدرات المؤهلة لولوج المدارس العليا والجامعات العلمية المتخصصة، يلجه القلة الأوربيون وأبناء الأعيان والعِلية من القوم.

والغريب أن أقطاب الحركة الوطنية كانوا ممن تسابقوا ليستفيدَ أبناؤهم مِن هذا التعليم رغبةً في تأهيلهم لإتمام دراساتهم العليا، وبقيت هذه المدارس تابعةً لفرنسا حتى بعد الاستقلال، وكأنها مدارس فَرنسية في أرض المغرب لا تربطها صلة به، بل تخضع مباشرة للقنصليات والسفارات الأجنبية.

وبالرجوع الى مضمون المجلة وفيما له الصلة الوثيقة بالمرحلة الكولونيالية نجد هناك ثلاث مقالات مست المسألة التعليمية بالمغرب خلال العهد الاستعماري بشكل كبير وهي:

✓ **نخبة بداية الحماية والمسألة التعليمية لمحمد معروف الدفالي ، وهو أستاذ باحث بكلية الآداب عين الشق – الدار البيضاء–** تمكن من خلال مقاله الذي تضمن عشر صفحات من رصد موقف الاصلاحيين من النظام التعليمي الجديد اذ أنه ازاء اصلاحات تلك المرحلة وازاء النظام التعليمي الوافد ، توزعت النخبة بين مواقف معارضة وأخرى مؤيدة تمجد العلم والمعرفة والتعليم منتقدة واقع التعليم القديم حيث فرض التعليم الوافد مع الحماية بنظامه ومناهجه ،برامجه، ومضامينه، على النخبة قيد الدراسة المقارنة بينه وبين سالفه ، وهي المقارنة التي أبرزت للإصلاحيين جدة التعليم الوافد ونفعيته ،وكشفت عمق تأخر نظام التعليم المغربي [20]

كما ميز الكاتب في معرض حديثه عن التعليم بين ثلاثة أنواع من التعليم أفرزتها السياسة الفرنسية وهي:

1-تعليم فرنسي: وهو نسخة من التعليم الذي كان سائدا بفرنسا وقتداك

2-تعليم عبري: وهو تعليم فرنسي مضاف اليه حصص لتدريس اللغة العبرية وثقافتها.

3-تعليم فرنسي اسلامي: خاص بأبناء المغاربة المسلمون، وكانت مدارسه موزعة بين مدارس حضرية واخرى قروية لكل منها طبيعتها، ومناهجها وطرق تدريسها .

✓ **اليسار الفرنسي والمسألة التعليمية عهد الحماية ل georges Oved وترجمة نوال متزكي، أستاذة باحثة بكلية الآداب عين الشق الدارالبيضاء،** عملت على ترجمة هذا المنتوج العلمي في تسع صفحات تمكنت من خلالها تسليط الضوء على التمدرس والبرامج الذين تضاربت بشأنهما المواقف في صفوف الاشتراكيين بين معارض ومؤيد لمسألة الاصلاح، وخير موقف نسوقه هنا يرجع للاشتراكي Benistant "ليس لدينا الحق ، فصل المغاربة عن ثقافتهم ولغتهم، لفسح المجال لحضارة أخرى ، لإدماجهم فيها. لكن يجب تسهيل تطورهم داخل اطارهم الخاص بهم" لكنه الى جانب قليلين شكلوا أقلية والنقابة لم تستطع اتخاذ موقف واضح بخصوص تعليم اللغة العربية.

كما عرض المقال لنقط الالتقاء والاختلاف مع الوطنين الذين كانوا يشتكون من برامج التدريس والحيز الضيق الممنوح للتاريخ والحضارة المغربية، واهتموا أيضا بفتح مدارس حرة لنشر أصول الثقافة العربية لم يتعاطف معها اليسار الفرنسي رغم علمانيته بسبب تدريسها للعربية والقرآن [21].

✓ **التعليم بمدرسة الدار البيضاء العسكرية بمكناس على يد الحماية (1918–1956) لحسنة مازي وهي باحثة من تازة،** اذ أنه بالموازاة مع التعليم في المدارس، خلقت ادارة الحماية التعليم والتكوين المهني الذي استقطب تلاميذه من المدارس بعد ملاحظة ميولاتهم لحرفة معينة، كما حظي تكوين الجنود باهتمام الاقامة العامة بالمغرب، فتم تأسيس مدرسة لتكوين الضباط المغاربة اتخذت من قصر الدار البيضاء بمكناس مقرا لها.

وهكذا تناولت الباحثة دوافع تأسيس هذه المدرسة والاحتياطات المنهجية في التخطيط لإنشاء هذه المدرسة كالحفاظ على التقاليد ووضع شروط دقيقة لاختيار التلاميذ من أبرزها الانتماء الأسري ، وخلصت الكاتبة الى أن المدرسة العسكرية تمكنت من تحقيق كل الأهداف التي سطرتها عسكريا وسياسيا ، حيث تخرج منها ضباط كانوا همزة وصل في العلاقات المغربية الفرنسية ، لكنها في ذات الوقت لم تتمكن من تحقيق كل ما كان يطمح اليه ليوطي وهو ضمان ولاء التلاميذ الضباط التام لدولة الحماية ، واستمرت المدرسة العسكرية في أداء مهمتها في تكوين الضباط المغاربة في عهد الاستقلال.

خاتمة:

هكذا وعلى إثر معاهدة فاس بتاريخ 30 مارس1912م، دخل المغرب محطة جديدة ووازنة في تاريخه، ألا وهي عهد الحماية الفرنسية، فظهرت بوادر المدرسة العصرية على المنوال المتعارف عليه الآن. إلا أن المدرسة التي أنشأها وهيمن عليها الفرنسيون في هذه المرحلة، لم تكن لتخدم إلا أجندة أملتها النوايا الاستعمارية البراغماتية للمحتل الفرنسي.

وإذا كان ظهور المدرسة بالجمهورية الفرنسية راجعا إلى أسباب سياسية وأيديولوجية مرتبطة بالحرص على نشر قيم العلمانية في المجتمع الفرنسي، وذلك في إطار التضييق على الفكر الديني للكنيسة التي كانت تحتكر الفعل التربوي، وإذا كان ظهور المدرسة الأمريكية استجابة لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية، كالتفكير في جسر هوة التواصل بين مختلف فئات المجتمع[22]، فإن مشروع المدرسة بالمغرب في هذه المرحلة لم يكن نابعا من قناعات ذاتية أو حاجيات المجتمع المغربي، بل كان هذا المشروع بمثابة خطوة ضمن تنفيذ مخططات المستعمر الفرنسي بالمغرب، لذلك فإنه يمكن الحديث عن عدة أهداف كان المحتل يرمي إليها من وراء إنشاء نظام ظاهره الرغبة في التعليم والتثقيف،

كخدمة المشروع الفرانكفوني من طرف سلطات الحماية من خلال المدرسة الكولونيالية، وتكريس الطبقية داخل المجتمع على أساس تعزيز الطبقية وتكريس القطيعة بين مختلف فئاته لاعتبارات ثقافية أو إثنية أو اجتماعية أو لغوية... وكان هذا الهدف واضحا أيضا في استراتيجياتهم، إذ صرح «هاردي» الذي كان مديرا للتعليم بالمغرب آنذاك، بقوله: «نحن ملزمون بالفصل بين تعليم خاص بالنخبة الاجتماعية، وتعليم لعموم الشعب. الأول يُفتح في وجه أرستقراطية مثقفة في الجملة، متحضرة مهذبة ولكنها أرستقراطية توقفت عن النمو الفكري بسبب تأثير العلوم الوسيطة (القرون الوسطى)، وأصبحت مهددة في وجودها المادي بسبب إهمالها للأساليب الاقتصادية الحديثة نتيجة اللامبالاة من جانبها. إن التعليم الذي سيقدَّم لهذه النخبة الاجتماعية، تعليمٌ طبقي يهدف إلى تكوينها تكوينا منظما..

الهدف الثالث: التطويع أو التجهيل إن ذلك التعليم الكولونيالي المبني على تكريس النخبوية، قضى على حق طائفة واسعة من المغاربة في التعليم النظامي، حيث كان الكثير منهم –ربما من باب الاحتراز للهوية الوطنية– يقاطعون التعلم في المدارس التي أنشأها المحتل الفرنسي حينئذ، إذ لم يكن يتجاوز عدد التلاميذ المغاربة المنخرطين في التعليم الفرنسي سنة 1937 حوالي 18.880 تلميذا، بينما كان سكان المغرب آنذاك حوالي ستة ملايين نسمة7. يقول محمد عابد الجابري مؤكدا على هذا المعنى: "«إن الأغلبية الساحقة من أبناء الشعب المغربي قد بقيت طول عهد الحماية بدون تعليم، وإذا كان هذا يرجع بالدرجة الأولى إلى تخطيط رجال الحماية، فهو يعود كذلك إلى مقاطعة الشعب المغربي للمدارس التي أنشأتها فرنسا بالمغرب."

إن التعليم تحت نظام الحماية بسياسته الطائفية التي كان ينتهجها، كان يصبو إلى أحد شيئين، إما أن تحظى بحقك في التعليم، حتى إذا تعلمت وتخرجت كنت من عملاء المستعمر الذين يسعون معه إلى تنفيذ مخططاته في البلاد، وإما أن تُحرَم هذا الحق الحيوي. فقد كانت سلطات الحماية تسعى إما إلى تطويع النخبة من المواطنين وعزلهم عن وطنيتهم بالانخراط في سلك التعليم، ثم توظيفهم لخدمة المشروع الاستعماري، وإما إلى حرمانهم من حقهم في التعلم، ليظلوا رازحين تحت الأمية القاتلة التي تجعلهم -ربما- غير واعين بمخطط المستعمر. الأخطر في ذلك التعليم الفئوي أنه يذكي الطائفية بين فئات المجتمع، حيث إن الطائفة المقاطعة للتعليم الفرنسي لابد وأنها ستنظر إلى النخبة المنخرطة في هذا التعليم على أنهم خونة مرتدون عن وطنيتهم، متنكرون لأصولهم ومقومات هويتهم، فهم متورطون في تهمة العمالة لفرنسا، أو ما يسمى في القاموس السياسي المعاصر «الخيانة العظمى». فسلطات الحماية بتعليمها الطائفي ذاك لابد وأن تحقق أحد المطمعين، إما التمكن من مسخ الهوية عبر تخريج أطر مغاربة يسارعون في تنفيذ نواياها الاستعمارية عن وعي أو غير وعي، وإما ضرب حصار الأمية على المقاطعين، ولا يضرها أيَّ ذَيْنِكَ الهدفين حازت.

ونافلة القول تمكنا من خلال هذا المقال المتواضع من تسلط الضوء على التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب عن طريق قراءة في مجلة أمل التاريخية من خلال الاعداد 28-29-30. هذه القراءة مكنتنا من السفر عبر العصور التاريخية من قديم وسيط فحديث ثم معاصر بغية رصد واقع التعليم وتطوراته عبر الزمن ، ومن جهة أخرى اعادة النبش في معطيات ذات قيمة علمية كبيرة ، مكنتنا من وضع مقارنة بين الماضي والحاضر التعليمي وهذا لا يتأتى لجميع التخصصات لكنه ليس بالعسير على تخصص كالتاريخ يمكننا من معرفة الماضي لفهم الحاضر واستكشاف المستقبل ، وهو أمر تجلى في تحليلنا الذي كانت هذه هي مراميه الكبرى كما أن هذه هي مهمة الكتابة التاريخية الحالية التي تجعل من الزمن التاريخي زمنا واحدا غير منفصل وتجعل من البحث التاريخي بحث متحرك غير ثابت قادر على اعطاء الحلول للأزمات.

الهوامش:

1 الدور التاريخي للمدرسة في التعليم بالمغرب الوسيط، مجلة أمل العدد 28-29 ص 29.

22 الدراسة والتدريس بمدرسة تامكروت، أحمد البوزيدي، مجلة امل، ع 28-29 ص 70.

3 التنظير للتعليم الاستعماري بالمغرب، لمحمد اليزيدي، مجلة أمل ع 28-29 ص81.

4 التنظير للتعليم الاستعماري بالمغرب، لمحمد اليزيدي ص87.

5 تعليم الطفل وعلاقته بوضعية الأسرة، القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، محماد لطيف، مجلة أمل العدد 30 الصفحة 19.

6 نفسه ص 23.

7 الحياة التعليمية في سبتة الوسيطية (القرنان 7-8/13-14م) لمحمد حقي مجلة أمل العدد 30 ص 48.

8 محمد عابد الجابري، أضواء على مشكل التعليم بالمغرب ص: 18، دار النشر المغربية – الدار البيضاء.

9 نفسه ص 18.

10 نفسه، ص 21.

11 أضواء على مشكل التعليم بالمغرب ص 20-21.

12 نفسه ص 22.

13 نفسه، ص 10.

14 أضواء على مشكل التعليم بالمغرب م س ص11.

15 نفسه ص 23.

16 إدريس الجنادري، الفرنكوفونية أيديولوجية استعمارية بغطاء ثقافي ولُغوي.

17سليمان بونعمان ، النهضة اللغوية ومخاطر سياسة التلهيج اللغوية.

18 أحمد السوالم، ومضات من تاريخ التعليم اليهودي بالمغرب، موقع: مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

19 أضواء على مشكل التعليم بالمغرب م س، ص31.

20 نخبة بداية الحماية والمسألة التعليمية لمحمد معروف الدفالي. مجلة أمل ص 75.

21 اليسار الفرنسي والمسألة التعليمية ترجمة نوال متزكي، مجلة أمل ص 88.

22 عمر التاور، منشورات مجلة المدرسة المغربية، العدد: 6 فبراير 2014، (ص:42-43-44).